في شعر بدر شاكر السيّاب

بقلم الدكتور ابراهيم السّامرائي

بغداد —

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

السياب من شعراء العراق المجددين ، ولعله كان من اوائل من حمل راية التجديد ، وقابل بشعره الجديد شعراء الجيل الماضي .

وقد رزق ـ عليه الرحمة ـ الشاعرية المتدفقة ، وهو واحد بين السباقين ان لم يكن اول هؤلاء .

هو شاعر ثري ، جمع له من الآلات والأدوات والف من مجموع ذلك ثقافة واسعة متشعبة أعانت شاعريته المتدفقة على النماء وعلى ادراك الأمور وتصويرها بكفاية قل نظيرها .

ومن مادة هذه الثقافة ادراك للشعر القديم وتذوق خاص للغرر من فرائده ، وهو يجيد صناعة تأليف الكلام ، مدركاً اسرار استعمال الالفاظ حتى لكأنك امام فحل من الفحول الذين غبر عليهم الزمن لولا انه يفجؤنا هنا وهناك بشيء مما الفنا استعماله من لغة هذا العصر .

وأنا أثبت الآن من قصيدته « مرثية الآلهة »[1] :

بلينـــا وما تبلى النجوم الطوالـع
ويبقى اليتـامى بعدنا والمصـانع[2]

ويبقى « كوبٌ » الجالب الكرب كالصدى
يغص المنـادي بالردى وهو راجـع

كأن الأميبيَّ توأم وهـــو توأم
لها فهو في منجىً من الموت قابـع

---

(١) انشودة المطر (دار مجلة شعر . بيروت) ص ٤١

(٢) في البيت الاول تضمين لمطلع قصيدة لبيد من الشعراء الجاهليين :

بلينـا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعـــدنا والمصانع

غير أن السياب قد غير « الديار » فأثبت « اليتامى » . و « المصانع » في بيت السياب غير « المصانع » في قول الشاعر الجاهلي ، فالسياب يريد بها جمع مصنع الكلمة المشهورة . أما « مصانع » لبيد مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرهـا . قال الاصمعي : هي مساكات لماء السماء يحتفرها الناس فيملؤها ماء السماء ويشربونها .

ولكنـه الفرد الذي يزحف الورى

الى حيـث ترمي مقلتيه المطـــامع

أعنقـاء من صحراء نجـــد تقحّمت

بهـــا مغربَ الشمس البعيد الزعازع

أم النّسل من أهرام فرعون لهاجع

وفته انتفاضَ الدود منه المبـــاضع

ومن ليس يحيا لن يُرى وهو هالك

فلو كان يحيـــا ماعـدته الفواجع

وما كان الا اسماً « كروب » ابن مثله

به يُدمَغ اثنان : الورى والبضائع

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

والقصيدة طويلة اجتزأت منها بهذه الابيات لتكون دليلاً على أن السياب قد وعى فرائد القديم وشوارده . غير أنه حتى في هذا القديم صاحب نظر جديد، وان الشكل القديم الذي عقد عليه قصيدته صرفه الى معان وأفكار جديدة هي نبات هذه البيئة التي يحيا فيها . ولم يلبس هذه المعاني الجديدة هذا الثوب القديم في هذه القصيدة ليس غير ، فقد بدا له ان يجمع بين هذا الشكل القديم وبين الجديد الذي أعلنه السياب وغيره من الشعراء الشبان دون أن يحس القارىء في هذا الجمع نفوراً او اضطراباً .

ومن ذلك ماجاء في قصيدته العامرة « من رؤيا فوكاي »[1] حيث انطلق السياب فيها بشعره وخواطره وافكاره ذات الشكل الجديد ، حتى اذا ذهب في

(١) انشودة المطر ص ٤٦

ذلك شوطاً بدا له أن يطيل نفسه فيتخذ من بحور الشعر المشهورة ماتوسم فيه أن يوائم ذلك النهج الذي بدأه في أول القصيدة ثم يستمر على هذا النحو من عودة الى القديم فرجوع الى الجديد حتى يسرد في قصيدته هذه ماشاء أن يفرغه فيها ممـا اقتضاه الموضوع . وإليك شيئاً منها :

هيايَ ... كونَغاي ، كونغاي (١)
مازال ناقوس ابيكِ يقلق الماء
بأفجع الرثاء :
« هياي .. كونَغاي ، كونَغاي » ،
فيفزع الصغار في الدروبْ
وتخفق القلوب
وتغلق الدور بيكّينَ وشنغهاي
من رجع : كونغاي كونغاي
فلتحرقي وطفلكِ الوليد
ليجمع الحديد بالحديد

ويستمر الشاعر في هذا النغم الجديد ثم يعدل عنه الى شيء آخر من نغم يقوم على الوزن الواحد والقافية الواحدة وهكذا يزاوج بين النمط القديم والنمط

---

(١) تشير هذه الكلمة الى اسطورة صينية وهي ان ملكاً اراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذهب والحديد والفضة والنحاس . وكلف أحد الحكام بصنعه ، ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي — وهي ابنة ذلك الحاكم — أحد العرافين بالأمر فأنبأها بأن المعادن لن تتحد مالم تمتزج بدماء فتاة عذراء ... وهكذا القت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن ... فكان الناقوس ... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق :
« هياي .. كونغاي ، كونغاي » .

الجديد، وكأنه يريد أن يؤكد أن الجديد لا يقتصر على التحرر من الوزن والقافية، وان القديم لا يقتصر على الحفاظ عليها ليس غير . وهو يقول في القصيدة نفسها :

تلك الرواسي كم انحط النهـــار على ... أقصى ذراها وكم مرت بها الظلم
فما فرحن بآلاف الشموس ، ولا ... من الف نجم تردّى مسّهـا ألم
صمّاء بكماء لم تأخذ ولا وهبت ... ولا ترصدهـا موت ولا هرَم
لو أودع الله إياها أمانتـــه ... لنـــالهن على استيداعها ندَمُ
ولا اقتسمن مع الأحياء مادفعت ... من جزية لاتوفّى حين تقتسم
عن كل قهقهة من صرخـــة ثمن ... وما استجد دم إلاّ وضاع دم
وما تحمـــل آلام المخـــاض ولم ... يقرب من النور الا الفكر والرحم
وإن يكن أسعد الأحياء أكملها ... فانمـــا هو اشقـاهن لا جرَمُ
«قابيل» باقٍ وان صارت حجارته ... سيفاً وان عاد نوراً سيفه الخَذِم
ورد «هابيل» ماقاضـاه بارئه ... عن خلقه ثم ردّت باسمه الأمم

ثم يستمر في هذا النفس المنسجم مثيراً مسائل وأفكاراً جديدة وان كان لبوسها قـديماً على غير مانعهده في شعر السياب من الانطلاق والتحرر من اشياء من قيود الوزن والقـافية . ويمضي في هذه القصيدة محافظاً على الوزن الذي درج فيه ، مغيراً القافيه في المقطوعات التي تلي هذه المقطوعة فهو يقول :

ماذا تريد العيون السود من رجل ... قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها
زهراً على جسمي المحموم أقطفه ... في باقـة من جراح بتُ أصلاها
هذا الربيع الذي تهدي شقائقه ... ريح المنـــايا الى قلـبي بريّاها
أزهار تموز ما أرعى : أسلمه ... في عتمة العـــالم السفلي إياها ؟
أم صل حواء بالتفاح كافأني ... وهو الذي أمس بالتفاح أغواها؟

وهو يعمد الى هـذا الاسلوب نفسه من المزاوجة والمصاحبة بين الشكل القديم والشكل الجديد في قصيدته « بور سعيد »[1] فيقول :

ياحاصد النـــار من أشلاء قتلانا	منك الضحايا،وان كانوا ضحايانا
كم من ردىً في حياة وانخذال ردىً	في ميتة وانتصارٍ جـاء خذلانا
إن العيون الـتي طفأت أنجمها	عجّلن بالشمس أن تختار دنيانا
وامتدّ كالنور في اعماق تربتنا	غرس لنا من دمٍ واخضلّ موتانا
فازّلزَلي يا بقايا كادَ أولنـــا	يبقى عليها ، من الأصنـام ، لولانا
نحن الذين اقتلعنـــا من أسافلها	لاةً وعزى وأعليناه إنســـانا

قد اسلفت ان السيد السياب واسع الثقافة ، واتساع ثقافته يعينه على أن يأتي في شعره بآفاق جديدة يفتقر اليها اقرانه من شعراء هـــذا الجيل المتأخر . نقرأ شعره فيبدو لنـا حشد من الاشارات للأساطير التي تتجلى في شخوص من الآلهة والأبطال والفلاسفة وغير هؤلاء . وهو يسرد هذه الأساطير ليفيد منهـا العبرة والحكمة والفكرة الجديدة يأخذها اغريقية احياناً كثيرة غير انك لا تعدم أن تجد من بينها إشارات لأساطير شرقية هندية أو صينية كما انك واجد من ذلك مايمت الى تاريـخ العراق القديم ، أو قل مايتصل بهذا الشرق عامة . يشير اشارات كثيرة الى « المسيـح » والى مايتصل بالثقافة النصرانية كما يشير الى شيء مما ورد في القرآن الكريم ، وانك واجد ايضاً شيئاً يتصل بالذهنية الشعبية العربية القديمة كما سنتبين . وأنت تـدرك كل الادراك ان الشاعر مطلع على شيء كثير من الأدب

(١) انشودة المطر ١٨١

الغربي الحديث وهو يلمح الى هذا في شعره . فهو يقول مثلاً في قصيدته « مرحى غيلان »[1] :

. . . . .

فكأن أودية العراق
فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي : كلُّ وادٍ
وهبته « عشتار » الأزاهر والثمار . كأن روحي
في تربة الظلماء حبة حنطة وصداك ماء
أعلنت بعثي ياسماءُ
هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ
« بابا ... » كأن يد المسيح
فيها كأنَّ جماجم الموتى تبرعم في الضريح
تموز عاد بكل سنبلة تعابث كل ريح
« بابا ... بابا ... »
أنا في قرار بويبَ[2] أرقد في فراش في رماله
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليل

. . . . .

بابا ... بابا
بأسلم الأنغام أيّة رغبة هي في قرارك ؟
« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارك

---

(١) النشودة المطر ١٨
(٢) بويب نهر في قرية الشاعر

فانت تقرأ هذه الابيات فتقع فيها عينك على شخوص قديمة اخذت من هنا وهناك لتستقر في هذا النظم الجديد فمن « عشتار » الى « تموز » من الآلهة البابلية القديمة الى « المسيح » الى « بعل » الى « سيزيف » . على انك لاتعدم أن تجد بيئة الشاعر القروية ماثلة كل المثول ، وسنعرض لهذا .

ولعل في هذه الاشارات القديمة في أدب السياب شيئاً مما اولع به ادباء الغرب ، فقد استوحوا آلهة الاغريق واشاروا الى أساطيرهم حتى أمست هذه من المسائل المعروفة للقارىء الغربي . فأنت لاتجد مسرحية من مسرحياتهم الحديثة الا كان فيها في الغالب شيء مما أشرنا اليه . وكأن هذا الأدب الاغريقي لم يعد كافياً لهم فقد جنحوا الى مافي العهد القديم والعهد الجديد من فوائد اقتنصوها وأدخلوها في أدبهم .

وهو في هذه القصيدة مخاطباً طفله الصغير « غيلان » يقول :

ياظلّيَ الممتد حين أموت ، ياميلاد عمري من جديد :
الأرض (ياقفصاً من الدم والأظافر والحديد
حيث « المسيح » يظل ليس يموت أو يحيا كظلّ
كيد بلا عصب ، كهيكل ميّت ، كضحى الجليد
النور والظلماء فيه متاهتان بلا حدود)
« عشتار » فيها دون « بَعْلِ »
والموت يركض في شوارعها ويهتف : يانيامُ
هبّوا ، فقد ولد الظلامُ (١)
وأنا « المسيح » أنا السلامُ

---

(١) كان كهنة ايزيس ينطلقون، في منتصف ليلة ٢٥/١٢ من كل عام هاتفين في شوارع الاسكندرية : لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس .

وهو في قصيدته مرثية الآلهة يشير اشاراته المعهودة الى الأساطير التي عمر بها شعره مفيداً من ذلك فائدة جعلت شعره زاخراً بالصور حافلاً بالحركة فهو يقول : (١)

ولما تشظى قلب نرسس وانثنى — يلم الشظايا منه شار وبائعُ
وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها — غما فيه نابا كوسجٍ فهو قاطعُ
هوى كل عال من إله وسافل — الى حيث ما من راحل ثم راجعُ
وأفضى الى العرش السديمي معدن — ءاالمتاح من احداق «ميدوز» لامعُ

و « ميدوز » هولة في أساطير الاغريق تحيل من تلتقي عينه بعينها الى صخر .

وهو يقول في « حقائق كالخيال » (٢) :

أزهار تموز ماأرعى : أسلّمه — في عتمة العالم السُفليّ إياها
أم صِلّ حوّاء بالتفاح كأنني — وهو الذي أمسِ بالتفاح أغواها

و « تموز » هذا هو أدونيس إله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت — أوفينوس — إلاهة الحب وهو يقضي نصفاً من السنة — الشتاء — في العالم السفلي مع برسفون ، والنصف الآخر — الصيف أو الربيع — على الأرض مع فينوس .

وفي قصيدته « قافلة الضياع » (٣) يقول :

---

(١) انشودة المطر ٤٣ .

(٢) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الاحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل اشياء لاوجود لها ، ولكنه — من خلال أوهامه ودون وعي منه — يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين القيت عليها القنبلة .

(٣) انشودة المطر ٥٩

أرأيت قافلة الضياع ؟ أما رأيت النازحين ؟

. . . . . .

. . . . . .

السائرين الى وراء
كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب وكام طين ؟
– « قابيل ، أين أخوك ؟ أين أخوك ؟ »

جمعت السماء

والاشارة الى « هابيل » و « قابيل » معروفة ، والأسفار القديمة تثبت ما كان من أمر قابيل وهابيل وآدم وحواء وقصة خروجهما من الجنة .

ويصف في هذه القصيدة مأساة اللاجئين الفلسطينيين . وتبرز في وصفه الصور المثيرة التي يتخيلها والتي يعين على تصورها هذا الواقع المؤلم المرير فيقول :

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب
في كل منعطف تصيح : « أنا النضار ، أنا النُضار »
من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دار
« أنا عجل « سيناء » الاله أنا الضمير ، أنا الشعوب
أنا النضار ! »

وفي هذا إشارة الى العجل الذي صنعه اليهود من الذهب واتخذوه إله يعبدونه من دون الله ولم يكترثوا لتعاليم موسى وشريعته .

وهكذا يسلك في جميع قصائده التي يعقدها على موضوع من موضوعات

هذا العصر ، أو قل على مشكلة من المشكلات أو مأساة من المآسي التي يعانيها شعب من شعوب ارضنا هذه فيستحضر في قصيدته شخوصاً لم يدرجوا على أرضنا هذه بل عاشوا في اذهان امم سبقتنا بقرون عديدة او ربما كانوا من متخيلات تلك الامم البائدة .

وفي قصيدته « رسالة من مقبرة »[1] مخاطباً المجاهدين الجزائريين يقول :

وعند بابي يصرخ المحبرون :
« وعرٌ هو المرقى الى الجلجلة ،
والصخر ، ياسيزيف ما أثقله
سيزيف ... انّ الصخرة الآخرون ! »

. . .

هذا مخاضُ الارض لاتيأسي
بشراك يا أجداث حان النشورْ
بشراك في « وهران » أصداء صورْ .
سيزيف ألقى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على « الأطلس »
آه لوهران التي لاتثور

وفي هذه الابيات يستحضر الشاعر « سيزيف » وقارىء الآداب القديم يعرف ذلك جيداً . والجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه الى قمته .

وقد يكون موضوع القصيدة في شعر السيد السياب مما يحيط به في بيئته التي خرج منها ، وهو في هذه الموضوعات يستحضر ظروف تلك البيئة ويصورها

---

(١) انشودة المطر ٧٨

بريشة الحاذق الصناع فيأتي على ظروف قريته « جيكور » كما في قصيدته « مرثية جيكور »[1] غير أنه على دأبه يرنو ببصره بعيداً عن ظروف هذه القرية فيسري عبر التاريخ الطويل فيقول :

ياصليب المسيح ألقاك ظلاً فوق جيكور طائر من حديد
يالظل كظلمة القبر في اللو ن و كالقبر في ابتلاع الخدود
والتهام العيون من كل عذراء كعذراء « بيت لحم » الولود
مر عجلان بالقبور العواري من صليب على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الاكيد :
لارجاء لها بان يُبعث المو تى و لا مأمل لها بالخلود
ويل جيكور ؟ أين أيامها الخُضْ رُ و ليلات صيفها المفقود

ربما لا نلقى شاعراً جاء بالصليب وبالمسيح وبما يتصل بهذا اللون من الثقافة الشرقية النصرانية مثل بدر السياب وما اظن أن الشعراء النصارى استحضروا في شعرهم شيئاً مما استحضره السياب في هذا الموضوع . وقد تذكر وانت تقرأ هذه الألوان النصرانية مارون عبود من كتاب العربية اللامعين الذي ثقف العهد القديم فأفاد منه في أدبه مادة ممتعة .

وفي هذه القصيدة أيضاً اشارات أخرى بعضها تاريخي وبعضها مما عرف في الثقافة الشعبية . فهو يقول :

لاعليك السلام ياعصر « تعبان بن عيسى » وهنت بين العهود
ذلك الكائن الخرافي في جيكور ، « هومير » شعبه المكدود

(١) المصدر السابق ٩٣

جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط « الرشيد »
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام ، بالشدق والخيال الوئيد
ماتزال « البسوسُ » محمومة الخيل لديه ، وما خبا من « يزيد »
نار عينين ألقتاها على « الشمر » ظلالاً مذبحات الوريد !
كلما لزّ شمره الخيل أو عرّى أبو زيده التحام الجنود
شد راحاً وأطلق المغزل الدوار يدحوه للمدار الجديد

. . . . . .

فهو يتحدث عن أحدهم يدعوه بـ « تعبان بن عيسى » ويصفه كأنه « هو مير » وهو مير الشاعر الاغريقي الأعمى ، ثم يمضي في وصف حاله وكيف يقص الحكايات القديمة كقصة حرب البسوس وقصة مقتل الحسين بن علي (ر) وقاتله « شمر بن ذي الجوشن » ، وللشمر في أذهان العامة شيء مخيف فهو مرتد ثياباً حمراً وعيناه تقدحان شرراً ، وربما نسي أن يشير الى أن العامة حين كانوا يمثلون مقتل الحسين لا بد أن يكون من يمثل دور « الشمر » أعور .

كما يشير الى قصة أبي زيد الهلالي .

ولعل من مجموع ذلك تبرز صورة واضحة للقرية التي درج فيها صاحبنا السياب .

وفي قصيدته « العودة لجيكور » (١) يشير الى اسطورة مما اعتقدها المجوس ، وهي بزوغ كوكب عرف منه المجوس ان « المخلص » قد ولد فهو يقول:

في صيف جيكور السخي الثري

---

(١) المصدر السابق ١٠٨

أسريت أطوي دربي النائي
بين الندى والزهر والماء
أبحث في الآفاق عن كوكب
عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يُروى لهيب الظماء
عن منزل للسائح المتعبِ

وفي القصيدة نفسها يخاطب « جيكور » ويناجيها مناجاة حزينة عاطفية فيقول :

من ينزل المصلوب عن لوحهِ
من يطرد العقبان عن جرحهِ
من يرفع الظلماء عن صبحه ؟
ويبدل الأشواك بالغار ؟
أواه ياجيكور لو تسمعين

وهو يتخذ من جيكور بيته المقدس أو قل المكان الذي يأوي اليه وهو من أجل هذا يستحضر « حراء » و « حراء » هذا هو الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد (ص) . وحين هاجر الى المدينة اختبأ فيه وقد جاء في الأثر ان العنكبوت حاكت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون الى مخبأ محمد. والسياب يلمح الى هذا فيقول :

هذا حرائي حاكت العنكبوت
خيطاً الى بابه
يهدي اليّ الناس . اني أموت
والنور في غابه

قلت في غير هذا المكان : ان الشاعر قد تزود بمادة اعانته على ايضاح الكثير من الصور فجاء شعره غنياً بالاشارات المفيدة . ومن مواده التي أفاد منها الثقافة الاسلامية فهو يشير الى ماورد في مظان هذه الثقافة كلما جدت الحاجة الى ذلك . هو يشير مثلاً الى «البراق» وهو الجواد الذي أسرى عليه النبي من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ليلة معراجه . كما يشير الى قصة الغراب الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله وهي القصة التي ترد في القرآن الكريم .

غير أن زاده من الالمام بالأساطير الاغريقية زاد وافر يدل عليه اشاراته الكثيرة التي حفلت بها مجموعته « أنشودة المطر » . وانت تستطيع ان تجرد من هذه المجموعة جملة من شخوص تشير الى اساطير وآلهة عرفها الاغريق الأقدمون. على أنه وهو يشير هذه الاشارات الغريبة مخلص كل الاخلاص لبيئته التي درج فيها ، مصور الوانها أجمل تصوير لا يبتعد عنها الا ليؤكد وجوده فيها .

السياب عراقي نشأ في أقصى الجنوب حيث الماء والشجر والخضرة وغاب النخيل وشط العرب والمد والجزر . وأنت لا تعدم أن تجد وجود هذه جميعاً في كل صفحة من صفحات هذه المجموعة الممتعة .

ولنسمعه في مقطوعة من قصيدته « مرحى غيلان » يقول :

أنا في قرار « بويبَ » ارقد ، في فراش من رماله
من طينه المعطور ، والدمُ من عروقي في زلاله
ينشال كي يهب الحياة لكل أعراق النخيلِ
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليلِ . . .
على المياه أنثُ في الوَرَقات روحي والثمار

والماء يهمس بالخرير يصلّ حولي بالمحار

وأنا بويبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

ويتجلى في هذه المقطوعة طبيعة بصرية جنوبية يبرز فيها النخيل والماء والرمل وما يتناثر عليه من أصداف المحار التي يعبث بها الصبيان . ومثل هذا كثير في شعر السياب .

رحم الله السياب الذي أخلص لفنه وأخلص لبيئته ووطنه .